وقفات مع حديث القرآن عن (بلقيس)

د. فريدة محمد علي بودي (*)

الحمد لله، نستغفره ونستهديه، ونستعين به، ونتوكَّل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونُصلِّي ونُسلِّم على نبيه وحبيبه محمد ﷺ ما طلعت شمس وما غربت.

لقد زادت في الآونة الأخيرة الهجمة الشرسة على الإسلام، وأخذ من يدَّعون أنهم حُماة الحرية ودُعاة التحضُّر يكيلون ما حداهم إليه شيطانهم من أكاذيب وأباطيل، ويبدو أنهم استغلوا طبيعة المرأة الحانية، التي تميل إلى الأقوال البرَّاقة الخادعة دون أن تعي في كثير من الأحيان ما تحمله هذه الكلمات من طعون وسهام تُوجَّه إليها أول ما تُوجَّه؛ فعزفوا على تلك الوتيرة، وأنشدوا لحن حقوق المرأة التي أهدرها المجتمع الإسلامي، وهم يريدون من إثارة مثل هذه القلاقل الطعن في الدين الإسلامي، ومحاولة زعزعة أركانه الراسخة؛ فشعرت بمسئولية مُلحَّة في إبراز دور المرأة في المجتمع الإسلامي، كما ذكرها القرآن الكريم؛ لدحض حُجَّة هؤلاء المفترين، وكبح جماح ضلالاتهم وافتراءاتهم.

إن الإنسانية تطير بجناحين -الرجل والمرأة - معًا، وإن انكسار أحد الجناحين يعني التوقُّف والسقوط، ولقد وُجِّهت إلى الإسلام تهمة إهانة المرأة واستضعافها؛ فهل في كتاب الله ما يبعث على هذه التهمة؟

وإذا قارنَّا ما يُثْبِته أدعياء المدنية الحديثة من دور للمرأة في المجتمع، وما يدَّعونه من حقوق حصلت عليها في التاريخ المعاصر، وبين ما كفله لها الإسلام في هذه الميادين نفسها، نجد أن هذه الأدوار التي يتشدقون بها ليست بدعة اهتدى إليها المعاصرون، وإنما هي واقع ملموس ومرسوم في آي الذكر الحكيم، وعبَّرت عنه آياتٌ غزيرةٌ في عددها، متنوعة في أبوابها، وكأن المولى -جلَّ وعلا- أراد من وراء ذلك أن يثبت حقوق المرأة وواجباتها في عصرٍ كانت المرأة فيه مذلولة محتقرة، كأنها متاعٌ يغلو ثمنه أو تبخس قيمته وفقًا للأغراض والأهواء.

(*) أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات -القاهرة.

وهكذا: فإن آي الذكر الحكيم قد أولت شئون المرأة ودورها في المجتمع عناية مخصوصة لم تُدانِهَا أو تقاربها تلك المدنية الحديثة ومنظمات حقوق الإنسان الجائرة فأردت بيان بعض أدوار المرأة في المجتمع كما نصَّ عليها القرآن الكريم؛ والأدوار العظيمة التي تقلدتها المرأة وذكرها لنا القرآن الكريم ومنها:

دور المرأة الملكة

وأبدأ بالنموذج الأول لملكة سبأ (بلقيس)، التي قال عنها المولى -عز وجل- في عرض قصتها التي جاءت على لسان الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(النمل:٢٣).

فهذا وصف الهدهد الذي نعت به تلك المرأة، مبتدئًا كلامه بالتوكيد؛ لكونه أمرًا غريبًا؛ فلم يكن مفهومًا في بني إسرائيل أن تكون امرأةٌ ملكةً، واستخدام الهدهد لفظ ﴿ وَجَدتُّ ﴾ دون (رأيت) يومئ بأن غيابه عن مملكة سليمان كان في سبيل خدمته، وبحثًا عن شئون تهم سيده، فأولى صفات هذه الملكة أنها امرأة، ولا شك أنها امرأة عظيمة تلك التي استحوذت على اهتمام الهدهد، ودعته إلى أن يتغيب عن المملكة ويخالف أمر سليمان، وقد جمع الهدهد لتلك المرأة عدَّة خصال، كل واحدة منها كفيلة بأن تكون عذرًا لتغيُّبه:

١- كونها ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾، والضمير قد يعود على (سبأ)، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريد به القرية فيكون من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية.

٢- ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾، وجَمْعُ هذه الخصلة مع التي قبلها (تملكهم) بالواو؛ للتوسط بين الكمالين، مما أفاد تفخيم شأن تلك الملكة وعظمة مُلْكها، وكان لاختيار لفظ (الإيتاء) دون غيره من مفردات اللغة التي كان يمكن أن تؤدي معناها؛ لأن الإيتاء يُشْعِر بأن الأمر المعطى إليها أمر مرغوب فيه.

ومما أفاد عظمة المؤتى بناؤه للمجهول ﴿ وَأُوتِيَتْ ﴾ وتأتي المبالغة في التعبير لتعطي عظمة أخرى إلى عظمة ما أوتيته هذه الملكة ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

ولكن هل من مقارنة بين ما سبقها به سليمان -عليه السلام - في قوله ﴿ وَأُوتِيَتَ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(النمل: ٢٣)

وبين ما قاله الهدهد في شأن بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾، مع كون الهدهد أحد أفراد مملكة سليمان؟

ونجيب عن هذا التساؤل بما أجاب به صاحب (البحر المحيط) «بأن قول سليمان – عليه السلام– عطف على قوله: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾

(النمل: ١٦)

وهو معجزة، فيرجع إلى النبوة والملك والحكمة وأسباب الدين والدنيا، أما مقولة الهدهد فجاءت عطفًا على الملك فلم يرد به إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا»[(١)].

ولم يكن ما نالته تلك الملكة شيئًا محددًا؛ لذا قال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب؛ فمنه ما كان إرثًا، ومنه ما كان كسبًا منها، ومنه ما وهبها الله من عقل وحكمة، وكياسة وفطنة، وما منح بلادها من خصب ووفرة مياه[(٢)].

ثم ذكر أثمن ما امتازت به ملكة سبأ وهو العرش، فقال: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾

(النمل: ٢٣)

عاطفًا خصوص ما تملكه على عمومه، «مِن كُلِّ شَيْءٍ»، اهتمامًا بشأن ذلك الخاص، وعلى الرغم من مشاهدة الهدهد عظمة عرش سليمان فإنه استعظم عرش بلقيس؛ «لكونه استصغر حالها بجوار سليمان –عليه السلام –، فعظمة عرشها بالنسبة إلى عروش أمثالها، أما عن وصف عرشها بالعظمة الموصوف بها عرش المولى –عز وجل – فعظمة عرشه –تعالى– بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض».

وتوالت الكنايات في هذه الآية الكريمة؛ لما للكناية من القدرة على التعبير عن المعنى بصورة أقوى من التصريح، ففي قوله: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ كناية عن خضوع أهل سبأ لسلطان بلقيس.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كناية عن بسطة الملك وسعة السلطان.

وقوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ كناية عن عظمة الشأن والفخامة.

والغرض من هذه الكنايات: تصوير حال تلك الملكة وما منَّ الله به عليها من النعم التي لا تعد ولا تحصى؛ مما جعل قومها يثقون فيها ويخضعون لرأيها، كما سنرى بعد قليل؛ فهي امرأة حكيمة التصرف، تتسم بفكر قويم، وعقل حكيم، وزادها تقديرًا ما تنعم به من قوة الملك والعز والجاه الذي رفع من شأنها.

وبعد، فهذا أحد الأدوار التي ذكرها القرآن الكريم للمرأة ونتابع بعون الله –تعالى – الأدوار الأخرى.

(١) البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، جـ٧، ص ٦٧، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، دار البناء للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، جـ ٩، ص ٢٣٥ (بتصرُّف)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.